نخرج من تخصصنا « الدقيق » فجعلنا للمعرفة حدوداً وأصبحنا ننظر إلى الأشياء بعين واحدة ، كما يبدو أننا نسير - أيضاً - على رِجْلٍ واحدة . والنظرة الأحادية لكتاب « علم الدين » انطلقت من كونه كتاباً فى القصة ، أو أنه محاولة أولى لكتابة الرواية العربية فى مصر ، وهذا حق - ولكنه ليس كل الحق . فعلم الدين كتاب معرفى كبير فى أسلوب قصصى . ومَن تناول الكتاب على أنه قصة أو رواية انتهى إلى أنه محاولة بدائية لا تستحق الثناء، أو تستحق الذكر والثناء المناسب الذى يقال عن المحاولات غير الناضجة فى الفن [٢] . والحقيقة أن الكتاب أهم من هذا وأخطر ؛ أهم من أن يكون محاولة غير ناضجة لأن كاتبه لم يقصد أن يكتب محاولة فى فن القصة بل قصد من تأليفه كما قال: « اعمل كتاباً أضمنه كثيراً من الفوائد فى أسلوب حكاية ينشط الناظر إلى مطالعتها » [٣] ، فهو لم يقصد إلى كتابة القصة الفنية لذاتها ، وكما ذكر فإنه قصد إلى تأليف كتاب فيه لكثير من الفوائد ، وما الحكاية فى « علم الدين » إلا طريقة فنية لجذب القارئ إلى المطالعة ، أو كما قال : « لتنشيط الناظر إلى مطالعتها » . وقد فعل « على مبارك » ما أراد ، ومن الواجب أن نسعدنا هذه المحاولة لتقديم الفوائد العلمية فى إطار فنى . أليس هذا ما انطلق عليه فى دراستنا « الأسلوب العلمى المتأدب » ؟ . ننى أغامر فأقول : إن هذا الكتاب لم يقدم - فقط - علماً فى